

منهج شوقي ضيف في الدراسات الأدبية

د. يوسف حسن نوفل

١ - إن محاولة التعرف على منهج الباحث الأدبي لا تنفصل عن محاولة التعرف على مناهج الباحثين السابقين والمعاصرين له؛ ذلك أن هذا الباحث لا يظهر في فراغ أدبي، أو أُنْفِي حالك، أو صحراء مجدبة. بل ترسخ جذوره، وتورق أغصانه وسط رياض حافلة بما قدمه الفكر العالمي: القديم والمعاصر، والفكر المحلي: التراثي والحديث.

ونحن بين يدي العطاء الأدبي لشوقي ضيف في حقل الدراسات الأدبية، نجد من الأهمية بمكان أن نلقى نظرة سريعة، نتعرف من خلالها على ما أنجزه الباحثون السابقون في هذا المضمار، ممن مهدوا الطريق، طريق البحث العلمي الجاد أمام المدرسة العلمية المنهجية التي أسسها، ورادها عالمنا الكبير «د. شوقي ضيف»، وأسهم فيها إسهامات متنوعة ما بين الأثر الأدبي المطبوع والمسموع، والأثر الأدبي الأكاديمي التعليمي، وبخاصة في حقل الرسائل العلمية، وكل مجال من هذه المجالات يستحق دراسة خاصة به تستكنه أعماقه، وتستشرف آفاقه لبيان الملامح الفنية لمنهج البحث الأدبي لعالمنا الكبير.

لباحث أن يقف على منهجه الأدبي في محاضراته المسموعة، ولباحث ثان أن يتأمل منهجه الأدبي في إشرافه العلمي على رسائل الماجستير والدكتوراه، وما أثمر من ثمرات يانعه يفوح عبيرها في أرجاء المجتمع العلمي العربي، مقترنة بأعلام لهم مكانتهم العلمية، وإسهامهم في حقل الدراسات الأدبية، خرجوا - جميعاً - من عباءة شوقي ضيف، وتعلمذوا على يديه بطريق مباشر أو غير مباشر عن كتب أو عن بعد.

وأمام هذا التعدد الخصب لا نملك إلا أن نحدد مجالاً لدراستنا. نحصره في «منهج شوقي ضيف في الدراسات الأدبية» من خلال آثاره المطبوعة.

٢ - إن حركة الاهتمام بالدراسات الأدبية الحديثة في أدبنا متصلة أشد الاتصال بموقف الدارسين من مصطلح «علوم الأدب»، واتساعه ليشمل عندهم ما يتصل بالأدب من تقويم اللسان وتصحيح الملكات، ومن اختلاف في عدد هذه العلوم، وفي تنوعها ما بين الأصول والفروع حتى لتشمل - عند أصحاب المنهج التقليدي - فروع اللغة والثقافة، قبل أن يتحدد مجالها لدى المحدثين من دارسي الأدب العربيُّ

كما أن حركة الاهتمام بالدراسات الأدبية متصلة أشد الاتصال بتيارات وافدة عن طريق البعثات، والمستشرقين من أمثال بروكلمان، ونللينو وغيرهما، فإذا ما حاولنا الوقوف على أمهات المصادر العربية الحديثة في هذا المجال دون خوض في التفصيل، وجدناها متمثلة في بواكير الدراسات التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، وكانت هذه البواكير اللبنة الأولى في صرح الدراسات الأدبية، برغم ما يفتقر إليه بعضها من منهجية أو شمول، وبرغم ما يمكن أن يوجّه إليها من ملاحظات فنية.

قد نجد من بين هذه الدراسات ما يستهدف انتخاب المعارف والمعلومات، والمختارات الشعرية والنثرية، وعرض الحكم في لغة تجمع بين الاسترسال والسجع. كما يبدو في خطوة رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣)، في كتابه (مناهج الألباب المصرية في مباحث الآداب العصرية) سنة ١٢٨٦ هـ، ممثلة تجربة أدبية لا تعنى أنه كان يدور بخلد صاحبها أن يقدم دراسة أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة.

وفي هذا النسق كانت تجربة محمد سعيد جعفر في كتابه (السعر في انتقاد الشعر)، الذي نشر منجماً في مجلة (روضة المدارس) منذ رمضان ١٢٩٣/١٨٧٦ م.

على أن هذه المرحلة الباكورة أسفرت عن محاولة أكثر نضجاً، تمثلت في (الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية)، وهي مجلة محاضرات الشيخ حسين المرصفي (١٨٠٥ - ١٨٩٠)، وظهرت طبعة الجزء الأول منها عن مطبعة المدارس الملكية سنة ١٢٨٩ هـ/١٨٧٢ م، والجزء الثاني ١٢٩٢ هـ - ١٨٧٥ م.

وهكذا فتح باب الاهتمام بدراسة آدابنا دراسة تدنو، أو تبعد من اتصالها بالطابع التقليدي لفهم الأدب ودرسه، ثم التيارات الوافدة عن طريق البعثات والمستشرقين، ويمكن أن نشير - بإيجاز شديد جداً - إلى طائفة من هذه الدراسات هي - في حقيقة الأمر - الخطوات التمهيدية لما نجنيه الآن من منهج علمي يؤدي ثماره اليانعة على أيدي أعلامه البارزين.

هذه الدراسات الباكورة من مثل ما قدم:

محمد دياب الذي انتهى من تأليف كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) سنة ١٨٩٧ م، كما نفهم من تقرير حمزة فتح الله عن فحص هذا الكتاب الذي طبع سنة ١٩٠٠ م، وحسن توفيق العدل (١٨٦٢-١٩٠٤) إثر عودته من ألمانيا، وقيامه بالتدريس في المدارس العليا، وقد صدر كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) سنة ١٩٠٤ عام وفاته بانجلترا، وروحي الخالدي المقدسي (١٨٦٤-١٩١٣) في كتابه (تاريخ علم الأدب عن الإفرنج والعرب)، وكتبه سنة ١٩٠٢ في فرنسا، وظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٠٤، وسليمان البستاني (١٨٥٦-١٩٢٥) في مقدمة الإلياذة سنة ١٩٠٤، وقسطاكي الحمصي (١٨٥٨-١٩٤١) في (أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر).

ولنا أن نذكر (إنشاء العطار) للشيوخ حسن العطار (توفي سنة ١٨٣٤)، كما نذكر جهوداً غير مكتوبة للأفغانى (١٨٣٨-١٨٩٧)، ومحمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥)، وعبدالهادي نجا الإيبارى (١٨٢٠-١٨٨٨)، والشيوخ عبد الله الشراوى (١٨٣٧-١٨٧٢).

وكان كتاب (المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية) لحمزة فتح الله (١٨٤٩-١٩١٨) من بواكير هذه الأعمال، غير أن مؤلفه - كما يذكر السباعي بيومي في مقدمة كتابه: «ننظر إلى الأدب كأنه فن لا يستند إلى علم، أو كأن دراسته - بعيدة عن تاريخه - كافية في تكوين الأدب»^(١).

وقدم حفنى ناصف (١٨٥٦ - ١٩١٦): (حياة اللغة العربية) سنة ١٩١٠، وأحمد الإسكندرى: (تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسى) سنة ١٩١١.

ومحمد على المتياوى: (الشذرات السنوية في تاريخ آداب اللغة العربية) سنة ١٩١١. وجورجى زيدان (١٨٦١-١٩١٤): (تاريخ آداب اللغة العربية) سنة ١٩١١، ومصطفى صادق الرافعى (١٨٨٠-١٩٣٧): (تاريخ آداب اللغة العربية) سنة ١٩١١.

وطه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣): (تجديد ذكرى أبي العلاء) الذى حصل به على درجة الدكتوراه سنة ١٩١٤، وطبعه سنة ١٩١٥، ثم ثورته المنهجية في كتابه (في الشعر الجاهلى) سنة ١٩٢٦، ثم ما أدخله من حذف وإضافة تمثلت في الصورة الجديدة للكتاب السابق، وذلك في كتابه (في الأدب الجاهلى) سنة ١٩٢٧، وما دار حول هذه الثورة المنهجية من حوار ساخن مما لا نخوض في تفصيلاته هنا، وإن كان لا يفوتنا التنويه بأهميته وعظيم أثره. وهكذا تتابعت جهود كل من:

(١) السباعي بيومي، تاريخ الأدب العربي ج١، العصر الجاهلى، النهضة ١٩٤٨ ص٦.

أحمد حسن الزيات (١٨٨٥-١٩٦٨) في (تاريخ الأدب العربي) سنة ١٩٢٨، ومحمود مصطفى في (الأدب العربي وتاريخه في صدر الإسلام والدولة الأموية) سنة ١٩٣٣، وزكي مبارك (١٨٩٢-١٩٥٢) الذي كتب بين سنة ١٩٢٧ وسنة ١٩٣٠ رسالته لنيل درجة الدكتوراه في (النثر الفني في القرن الرابع)، وصدرت سنة ١٩٣٤. وأحمد الشايب في كتابيه: (تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني) سنة ١٩٤٥، و (تاريخ الأدب العربي) سنة ١٩٤٨، ومحمد هاشم عطية في (الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي)، وأنيس الخورى المقدسى (١٨٨٥-)، وأمين الخولى (١٨٩٥-١٩٦٦)، والعقاد (١٨٨٩-١٩٦٤)، ومحمد حسين هيكل (١٨٨٨-١٩٥٦)، وأحمد أمين (١٨٨٧-١٩٥٤)، ومحمد خلف الله أحمد، وعبد الوهاب حمودة.. الخ.

ونكاد نستغرق وقتاً طويلاً لو مضينا مع المحصر والاستقصاء لأعمال أخرى وما حمل اسم المفصل، أو المجلد، أو الوسيط، أو الموجز، أو المنتخب، كما نقضى وقتاً أكثر طولاً لو رحنا مع مضمون هذه الدراسات نتعرف على مناهجها، وما بها من محاسن ومآخذ، غير أن علينا الآن أن نقنع بهذه العجالة توطئة للحديث عن ميلاد باحث، وبزوغ نجم علمي وسط تفكير أدبي ركز الحديث عنه أحمد الشايب في مقدمة (تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري)^(٣) لطف إبراهيم، إذ رأى التفكير الأدبي يتجه في أحد اتجاهين:

- اتجاه غربي يعزلنا عن بيئتنا الأدبية، ويستنبط قوانين خارجة عنها.
- واتجاه يقف عند ما كتبه الأقدمون فيقع في أحكام جزئية، سريعة، ويقنع بالسابقين فحسب، ويجعل الأدب العربي وحدة مستقلة، لهذا رأى أن تكون الدراسة فنية تعنى بالأصول والطرائق والمقاييس، وتاريخية تهتم بالماضي، وأطوار النشأة.

وقد ذهب محمد النويهي في مقدمة كتابه (ثقافة الناقد الأدبي)^(٣) إلى أن بعض كتب تاريخ الأدب هذه صرفت المتعلمين عن الأدب العربي، وقطعت عليهم الصلة بمصادره الأصلية، إلى أن رأى أن مثوى هذه الكتب (النار)!!، بل وصفها بأنها كتب (شعواء)!!، لقيامها - كما يقرر - على أشتات من المعلومات، وعلى الأحكام الجزافية غير الصحيحة، وعلى الاستظهار، إلى آخر ما ساق النويهي من نقد لتلك الكتب المدرسية مستثنياً (المجلد)، معللاً ذلك بأن طه حسين أحد مؤلفيه.

(٢) لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ١٩٣٧.

(٣) الخانجي، دار الفكر ط ٢، بيروت ١٩٦٩، ص ١١، وما بعدها. وانظر نقده الشديد لكتاب (الفن ومذاهبه في الشعر) ص ٤٦ وما بعدها.

وما يعرضه النويهي، هو استمرار لما سبق أن نوقش في مطلع العقد الثاني من القرن العشرين، ففي سنة ١٩١١ شرع طه حسين ينقد كتاب جورجى زيدان على صفحات مجلة الهداية، مناقشاً التفرقة بين كتب الفهرسة - ولعله يقصد العلم الذى نضج بعد ذلك وهو علم الببليوجرافيا - من ناحية، وكتابة تاريخ الأدب من ناحية أخرى، معترضاً على اتباع تقسيم الأعصر السياسية، تلك التى تجعل الأدب متأثراً بالحوادث ولا تجعله مؤثراً فيها.

وفي سنة ١٩١٥ عاد في مقدمة (تجديد ذكرى أبى العلاء) إلى الحديث عن تردد درس الأدب في مصر بين تيارات أحدها المذهب القديم، والثاني مذهب الأوربيين، والثالث بين المذهبيين، وصفه بأنه «مشوش ردىء كله شر» وكيف اهتمت الجامعة بالمذهبيين الأولين.

وفي سنة ١٩٢٦ عاد في مقدمة (في الشعر الجاهلى) إلى مناقشة القضية ذاتها، متناولاً مفهوم مصطلح (الأدب) والصلة بينه وبين تاريخ الأدب، ومقاييس تاريخ الأدب من المقياس السياسى الذى ينكره، والمقياس العلمى الذى يعدل عنه كما عدل عن الآخر، والمقياس الأدبى الذى يختاره ويتخذ سبيلاً للبحث.

كما رأى محمد حسين هيكل أن جورجى زيدان، والرافعى، لم يوفقا في الجزأين الأولين من كتابيهما؛ إذ رأى في تاريخ الأدب ألا يقوم على سرد الوقائع، أو أخبار الرجال وآرائهم، كما لا يقوم على العناية بالأعراض دون الجواهر، أو الانسياق وراء العاطفة، أو عدم الاعتماد على الأدلة والبراهين، أو عدم تحرى الدقة، وكما عرض لذلك في كتابه (في أوقات الفراغ)^(٤)، عرض في كتابه (ثورة الأدب)^(٥) آراءه حول الأدب القومى.

ولم ينفصل ذلك كله عن تيارات الفكر المعاصر المتراوحة بين الافتتان بالغرب، والاتجاه إليه، وبخاصة لدى العائدين من البعثات الخارجية، أو الالتزام بالمحافظة، أو التردد بين التيارين في حدة غربية مسرفة، أو حدة مادية متطرفة، أو ميل فرعونى طارئ.

وبين هؤلاء وأولئك، وجدنا من يفتنون بجمال الصياغة والأسلوب، كما وجدنا من يهتمون بالقيم والأفكار الكامنة في المضمون، دون إهمال للشكل ودون إسراف في تجميله، كما وجدنا طائفة من المتجاورين علمياً في معارك أدبية متنوعة.

ولسنا بسبيل بسط القول في الإبانة عن مضمون ما سبق من دراسات. ومدلول كل ما سبق ذكره من مصطلحات، فقد سبقنا بتفصيل القول عنها، كما أننا نذكر ذلك كله لتعرف على البيئة الفكرية، والأدبية التى استقبلت إسهام عالمنا الكبير شوقى ضيف الذى وجد من

(٥) مطبعة مصر د. ت.

(٤) القاهرة ١٩٤٨.

الضرورة الإسهام في استكمال ما بدأه السابقون من بناء، فلم يقتصر دوره على ذلك فحسب، بل أضاف وابتكر، وجدّد ونظّر.

٣ - سبيلان أحدهما.. تنظيري والآخر تطبيقي:

ولكى نقف على جهوده نرى من الضروري الإشارة إلى أن إسهام شوقي ضيف اتخذ سبيلين، أحدهما تنظيري، والآخر تطبيقي.

السبيل التنظيري:

أما السبيل التنظيري، فيمكن أن نلتبس طريقنا إليه في مصدرين. أحدهما: مقدمات كتبه جميعها، وفيها نراه حريصاً على ذكر تاريخ كتابتها باليوم والشهر والسنة.

وثانيهما: كتابه (في النقد الأدبي) الذي وضعه في أبريل ١٩٦٢.

وكتابه (البحث الأدبي): طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره) الذي وضعه في فبراير ١٩٧٢.

لا شك أنه قد التفت إلى تنوع اهتمامات الدارسين بين الانشغال بما حول الأدب من حياة صاحبه وبيئته، ومحتومه، وعصره، وظروفه السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، أو الجمع بين ذلك وبين الاهتمام بالعمل الأدبي ذاته من تحليل وتفسير وتقويم وتذوق.

لقد رأى جورجى زيدان - كما يذكر في مقدمة الجزء الثاني من كتابه^(٦) - ضرورة وجود شروط ثلاثة للتأليف هي:

اختيار الموضوع الذى تحتاجه الأمة، وسبكه فى قالب يسهل تناوله فى لهجة صادقة صريحة دون انحياز لطائفة أو حزب.

كما رأى افتقار الأبحاث الأدبية إلى إعمال الفكرة من ترتيب وسبك، فى عبارة سهلة غير ركيكة. كما مضى متسائلاً عن معنى تاريخ الأدب واتصاله بالمعنى العام لكلمة الأدب أو الخاص لها، وتفاوت الاهتمام بين الإحاطة بحياة الأدباء أو الإحاطة بالكتب. أما منهجه، فيجمله بقوله: «فقد أردنا أن نجمع بين ذلك كله على ما بلغ إليه الإمكان»، متحدثاً عن نسق الكتاب؛ أى: تقسيمه، وجعله للناشئة».

ونقف من ذلك على حقيقة ذات أهمية بالغة، تفرق بين دارس وآخر، مرجعها إلى فهم الأدب

(٦) جورجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢، الملال ص ٣ وما بعدها.

بمعناه العام، كما رأينا لدى من أرخ لآدابنا من المستشرقين، وكما صنع جورجى زيدان، أو فهم الأدب بمعناه الخاص، وهذا ما ارتآه شوقى ضيف فى دراساته الأدبية على نحو ما يحدثنا فى مقدمة كتابه (العصر الجاهلى)^(٧)، حيث رأى أن يدرس الأدب بمعناه الخاص ليقف على الجمال الفنى، غير مكثف بالنبذ المجملة، كما رأى ألا نبطل فكرة الشخصية الأدبية والمواهب الذاتية مع مراعاة الجنس والزمان والمكان، وتطور الأجناس الأدبية على نحو ما درس فى المقامة وتولدها من الأرجوزة، مع الوقوف عند أساليب الأدباء وتشكيلاتهم اللفظية والجمالية.

لقد أدرك عالمنا الكبير - كما يعبر فى المقدمة ذاتها - افتقار تاريخ أدبنا العربى إلى طائفة من الأجزاء المبسوطة تبحث فيها عصوره من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر، كما تُبحث شخصياته بحثاً مسهباً بحيث ينكشف كل عصر انكشافاً تاماً بجميع حدوده وبيئاته وآثاره.

كما أدرك صعوبة المهمة، يقول:

«وقد حاولت أن أنهض بهذا العبء، وأنا أعلم ثقل المثونة فيه»، معللاً ذلك بأسباب هى: بقاء بعض المخطوطات دون نشر، أو دون نشر علمى، وأن بيئات أدبية يغمرها غير قليل من الظلام، وأن تحليل الأعمال الأدبية ليس عملاً سهلاً، ويقرر - بتواضع العلماء - أن ما يقدمه - فى كل عصر - لا يحمل الصورة الأخيرة للعصور المتعاقبة، ولا يمنع من إضافة اللاحقين، فتلك طبيعة الأبحاث يكمل بعضها بعضاً.

وهنا هنا ما يتصل بتحليل الأعمال الأدبية، إذ أدرك عالمنا بعض ما كان يعوز الدراسات السابقة، من فقدان ظاهرة الاهتمام بالنص وصاحبه، ولهذا كان حريصاً على التأكيد على هذا الجانب فى مقدمات كتبه، فهو فى المقدمة التى تحمل تاريخ سنة ١٩٧٣ لكتابه (العصر العباسى الثانى)^(٨) يصور «تمثل الشعراء خصائص العربية ودقائقها الجمالية والموسيقية»، ويهتم «بالأخيلة المبتدعة»، ويذكر:

«وبحثت بحثاً تحليلياً تاريخياً أعلام الشعراء فى العصر»، ليقف على أشعار على بن الجهم، وأروع أشعاره ما نظمه فى الاستعطاف وفى تصوير صلابة نفسه»، ويقف عند البحترى ليرى «ما سُخر له من تلاوين الجمال الموسيقى الآسر وأنغامه وألحانه الرائعة»، كما يقف على أفكار ابن الرومى وتصويراته الجديدة، وابن المعتز، والصنوبرى.. الخ.

ويُصادفنا فى معظم مقدمات كتبه تنويه بنزعة «النقد والتحليل» فى أعماله، رأينا ذلك فيما

(٧) كتب المقدمة فى ٢٠ ديسمبر ١٩٦٠، ورجعنا للطبعة السادسة فى سلسلة تاريخ الأدب العربى - ١، دار المعارف ١٩٧٤.

(٨) نرجع إلى ط ١٩٧٣ - دار المعارف.

أشرنا إليه من مقدمتين، كما نراه في مقدمة كتابه (فصول في الشعر ونقده)^(٩)، كما نراه في مضمون هذا الكتاب وفي غيره من كتبه.

وهناك جانب آخر يتصل بتقسيم العصور الأدبية وفقاً للعصور السياسية من الجاهلية، فالإسلام حيث صدر الإسلام في عصر الخلفاء الراشدين، ثم العصر الأموي، ثم العصر العباسي: الأول في مائة عام، والثاني بقية العصر، أو إلى سنة ٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م حيث استولى بنويويه على بغداد، حيث يبدأ العصر الثالث حتى استيلاء التتار على بغداد.

أما شوقي ضيف فيذكر في مقدمة كتابه، (العصر الجاهلي) أنه يرتضى تقسيم العصرين الأولين، أما العصر الثالث، وهو العصر العباسي فيبقى منه على الأول حتى ٢٣٢ هـ، والثاني حتى ٣٣٤ هـ. ثم يبدأ بعصر رابع يمتد حتى العصر الحديث، ويسميه عصر الدول والإمارات، حيث يرى أن يؤرخ لكل إقليم على حدة، حتى إذا انتهينا من ذلك أرخنا للعصر الحديث، والتعليل الذي يقدمه شوقي ضيف لذلك التقسيم، ويراه «أكثر دقة ومطابقة لتطوره»، هو أن «بغداد لم تعد منذ القرن الرابع الهجري تحتل المكانة الأولى في الحركات الأدبية، بل لقد نافستها في الشرق والغرب مدن كثيرة تفوقت عليها في النهوض بالشعر والنثر تفوقاً واضحاً». وقد يجوز لنا أن نبنى على هذا التعليل تساؤلاً، حول اعتبار عالمنا الكبير العصر الحديث - الذي يبدأ بالحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١٣ هـ - ١٧٩٨ م واحداً كما هو عند جميع الدارسين، وهنا نتساءل ألا يحق لنا أن نجعل لهذا العصر صدراً، يتصل بمرحلة الإحياء والبعث، ثم نجعل له مراحل مما يتصل بمظاهر التغيير، مما يعود - في مجمله - للحروب، وما تحدثه من تغيير، هذا تساؤل عارض تقدمه بين يدي البحث، ولعله يحظى بالفتاة من الالتفاتات الواعية لعالمنا الجليل.

وكما كان لشوقي ضيف أن يستنّ طريقاً جديداً واضحاً في الدراسات الأدبية ميّزه عن الألوان التجريبية التي سادت منذ أواخر القرن الماضي - مما ذكرنا -، كان له أن يبني منهجه على ما يكونه من رأى ليس شخصياً بقدر ما هو موضوعي، يُؤلد نتيجة الدراسة العلمية، ولعل أصدق ما يُساق في هذا المجال توضيحاً لهذه المقولة التي نظرناها، كتابه عن أحمد شوقي أمير الشعراء الذي فاز بجائزة الدولة التقديرية للأدب سنة ١٩٥٥ بعنوان (شوقي شاعر العصر الحديث).

حقاً لقد ظهرت بحوث عديدة حول أحمد شوقي ليس من بينها - كما يعبر عالمنا - «بحث منظم»، يقول في المقدمة التي كتبها في أول يونيو ١٩٥٣ م:

(٩) نرجع إلى ط ٢، ١٩٧٧ دار المعارف.

« فقد اكفهرت الأجواء الأدبية إزاءه، بالثناء المسرف والظعن المجحف، وأصبحنا لا نعرف أين الوجه الصحيح، ولا أين المقدمات السليمة، ولم نعد ندرى أى الأحكام فيه صادق، وأيها كاذب، وأيها مصيب.

وبذلك عميت علينا حقيقة شوقى، بل حقائقه الفنية جميعاً، وكان هذا أكبر باعث لى على النهوض بهذه الدراسة التى لم أقصد بها إلى تهجينه ولا إلى تحسينه، وإنما قصدت إلى بحثه ووزنه بعايير سهلة، هى معايير النقد المنصف الذى لا يميل مع الهوى، وإنما يسجل الظواهر الأدبية متتبعاً مستقصياً فليس همه أن يزرى وينتقص، ولا أن يزخرف ويزين، وإنما همه أن يصور الحق ويكشف الضواب.»

وهكذا نجد وجهاً من وجوه الإضافة العلمية المنهجية للدراسة الأدبية العربية المعاصرة، يقوم على الحكم الموضوعى، وتأمّل الظواهر والاحتكام إليها فيما يصور من أحكام، كما نرى إبطال نظرة مجارة الغير فى آرائهم دون تمحيص، وإبطال مبدأ البحث الانفعالى العاطفى الذى يميل مع الهوى، وإبطال مبدأ التبد العجلى المتبورة، مما كنا نراه فى الدراسات الأدبية السابقة لعصر شوقى ضيف.

بل إننا نراه فى هذا الكتاب يقدم لوناً جديداً على الدراسات الأدبية طالما أفاد منه النفسيون فى دراستهم للأدب، وهو دراسة المسودات الأدبية، وقد طبقه على شىء من شعر شوقى الغنائى والمسرحى.

لقد ختم عالمنا المقدمة بقوله: « فنحن لم نضع هذا البحث تشيئاً لأنصاره، وكذلك لم نضعه تعصباً لخصومه، وإنما وضعناه ابتغاء تقويم شعره من جميع أطرافه تقويماً صحيحاً دقيقاً.» ثم لا يلبث أن يعود للحديث عن شوقى ومكانته فى الشعر الحديث فى كتابه (فصول فى الشعر ونقده) ص ٢٣١ - ٣٤٨.

هذا عن المصدر الأول للجانب التنظيرى عند عالمنا.

٤ - أما المصدر الثانى للجانب التنظيرى عند عالمنا فنجده فى كتابه (فى النقد الأدبى)^(١٠)، حيث يذكر فى المقدمة المكتوبة فى أبريل ١٩٦٢ أنه يقف عند تفسير الجمال الفنى، وتعليه والصلات المنعقدة بين فنون الشعر والتصوير والموسيقى، والشعر وأوزانه وصياغته ونصوصه، وتأويلاته وتجاريه وما ينبغى أن يتوفر للقصيد من وحدة عضوية تامة. ويعلن أن ما كتبه إنما هو آراء تمثلها، ابتغى فيها الوضوح لإيمانه «أن الكتب لا تحتاج إلى شىء حاجتها إلى الوضوح.»

(١٠) نرجع إلى الطبعة السادسة، دار المعارف ١٩٨١.

ولهذا نجد في هذا الكتاب الاهتمام بالتنظير؛ أي رصد الظاهرة النقدية منذ بواكيرها العالمية حتى تطورها في العصر الحديث، وصولاً إلى ما سماه شوقي ضيف (التاريخ الطبيعي للأدب)، ووصولاً مع الدراسات النفسية والاجتماعية، لكنه وهو معنى بمصطلحات الجمال، والتجربة الشعرية، والوحدة العضوية، والأدب الاجتماعي، والنقد القصصي والمسرحي، يكون معنياً أيضاً بالجانب التطبيقي مع عنايته بالتنظير حتى لا تتجاف مواطن الجمال في النص عن أسس نقده ومناهج بحثه.

وفي مقدمة (البحث الأدبي)^(١١) المكتوبة في فبراير ١٩٧٢، لا يفوته أن ينوه بأنه «لا بد أن تتكون لدى الباحث الناشئ قدرة على التذوق الأدبي المثلل، والتحليل الدقيق لشخصيات الأدباء، وفهم خصائصهم المميزة، مع دقة العرض واكتمال التمثل، ومع الاحتياط في استخدام صيغ التعميم».

ولأنه قد شعر بحاجة طلاب الدراسات العليا لمثل هذا البحث، أخذ يعرض جوانب المنهج النظرية جامعاً بينها وبين التطبيق في كثير من الأحيان ترسيخاً للفكرة وشرحاً لها، فينتقل من الحديث عن طبيعة البحث الأدبي، إلى تنوع المناهج بين العلوم الطبيعية، والاجتماعية، والنفسية، والجمالية، والاتجاه التكاملية الذي يميل إليه ويؤيده (١٤٤)، كما يتناول الأصول بين الوثيق والتحليل، والمصادر وتنوعها ونقدها.

٥ - شوقي ضيف ونظريته في وحدة التراث:

إن في تأمل مكتبة شوقي ضيف بمجالاتها المتعددة ما يقفنا على حقيقة مهمة هي صدوره عن نظرية آمن بها من قبل وطبقها في بحثه: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، والفن ومذاهبه في النثر العربي، وما زال يعود إليها بين الحين والحين، ففي أكتوبر ١٩٨٠ نشر بمجلة فصول بحثاً عنوانه (وحدة التراث) - ص ٩-١٨، وواصل الحديث عنها في يوليو ١٩٨١ بالمجلة ذاتها، في بحث عنوانه (القديم الجديد في الشعر) - ص ١١-١٧، عودة إلى ما كتبه في كتابه (فصول في الشعر ونقده) حول (تقويم تراثنا الشعري) ص ٩-٢٧ سنة ١٩٧١، امتداداً لما بدأه في سلسلة تاريخ الأدب العربي^(١٢).

إن ذلك ينبع - في تصورنا - من نظريته في (وحدة التراث) القائمة على الأسس التالية كما نوجزها من مقاله:

(١١) نرجع إلى ط ١٩٧٢.

(١٢) عن صلته بالأغاني للأصفهاني: الدكتور سيد النساج، رحلة التراث دار المعارف ١٩٨٤ ٢٥٢-٢٥٤.

الأساس الأول: وحدة التراث الديني وعلى رأسه القرآن الكريم، وما انبثق عنه من تفسير وحديث ومذاهب فقهية.

الأساس الثاني: وحدة التراث النحوي واللغوي والبلاغي.

الأساس الثالث: وحدة التراث المتصل بعلوم الأوائل كالفلسفة والطب والطبيعة والكيمياء.. الخ.

الأساس الرابع: الوحدة الظاهرة في نظام الأدب وقواعده: شعراً ونثراً.

الأساس الخامس: كتب تراجم المفسرين والقراء والمحدثين أو الحفّاظ للحديث النبوي والنحاة، وكتب التاريخ العام.

ولهذا يرى الشعر متجاوزاً المكان والزمان، لأن تعامله مع النفس البشرية يجعله ثابتاً لا يتغير في جوهره، فيكون قديماً في زمن ظهوره، جديداً في زمن تأثيره، وهكذا يكون شعر المديح قديماً وجديداً، لأنه صادر عن وحدة تتمثل في: الطبيعة البشرية، والإيقاع، والخيال، والصياغة، وهذه الوحدة التي تُعدّ أساس التفكير المنهجي عند شوقي ضيف - في نظرنا - تفسر ظواهر عديدة في عطائه السخي، فهي تفسر اهتمامه بتاريخ الأدب العربي، حيث تعاقبت إصداراته عن العصر الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي، ودراساته عن الفن ومذاهبه في كل من: الشعر والنثر، ودراساته في الأدب المعاصر، والشعر المعاصر ومعظم شعرائه المعاصرين، وبخاصة: البارودي وشوقي في كتابيه، وفي ثنايا كتب أخرى، وفي نظير معاصر لها له دوره في الشعر الجديد، وهو صلاح عبد الصبور الذي يكتب عنه بحثه (صلاح عبد الصبور رائد الشعر الحر الجديد) بمجلة فصول (أكتوبر ١٩٨١)، ويعلن أنه «كان يديم التفكير في هذا الشعر الجديد»، و«وكان يتعاطف معه»، حتى يقرر زيادة صلاح عبد الصبور لهذا الشعر، كما يكتب عن (نواقص الإيقاع في الشعر الحر) ص ٣٠١ بكتابه (فصول في الشعر ونقده)، كما يكتب عن الغناء والشعر وطوابعه الشعبية، وفنون الأدب: الرثاء والمقامة، والترجمة الشخصية، والرحلات.

كما يكتب في النقد والمناهج، ويؤرخ للبلاغة والمدارس النحوية، بل يقدم كتابه (تجديد النحو)، ويسهم في التحقيق، والدراسات القرآنية، ويمزج بين الدرس اللغوي، والأدبي، والنقدي، والمنهجي، في مقالات عن الحوار المسرحي بمجلة المجمع اللغوي (مايو ١٩٧٨ ومايو ١٩٨٠)، فيتحدث عن الفصحى والعامية وعن اللغة الثالثة.

إن هذا يعود - في مجمله - إلى نظرة أصحاب المنهج التاريخي في تأثير الحاضر في فهم الماضي باستخدام (القياس التاريخي).

وفي ذلك كله - مما أوجزناه إيجازًا تحاشياً للإطالة - نراه يضرب بسهم وافر، ويحيط إحاطة شاملة واعية، وما ذلك - في نظرنا - إلا لإيمانه بوحدة التراث، تراث أمتنا، يراه حين يدنو من الأدب، أو النقد، أو البلاغة، أو النحو، أو التحقيق، أو الدراسات القرآنية، حتى ليتمكن لنا أن نزعم - دونما مبالغة - أنه لم يتيسر لباحث محدث أن يحيط بدرس أدب أمته من أعماق ماضيها البعيد، إلى أوج حضارتها المعاصرة بدرجة واحدة من الإحاطة والشمول، والتمثل والاستيعاب، مثلما تيسر لباحثنا الكبير الذي استخلص لنفسه منهجاً، واصطفى سبيلاً بين تيارات صاخبة بين التراثية والغربية والفرعونية، بين سكينتي اليقين وثباته، وصخب الشك واضطرابه، في منهج، أبسط ما يقال فيه: إنه منهج تكاملي يجمع بين الرؤية الداخلية والرؤية الخارجية كما سنرى.

٦ - المنهج التكاملي:

لقد تمثل شوقي ضيف جهود المنهجين السابقين في العصور القديمة والحديثة، في تراثنا العربي والتراث العالمي، لم يغب عن ذهنه جهود منهجية أفادت من قوانين العلوم الطبيعية، فاتجهت إلى أن الأدب وأدبه ثمرة قوانين قديمة وحاضرة ومستقبلية، وتجعل من الروابط ما يضم الأدب إلى فصيلة أدبية، ينتمى إليها مهما صاحب ذلك من غياب الخصيصة الفردية لكل أديب، وبذلك تتكون عناصر:

الجنس أو الفطرة الموروثة، والبيئة أو الوسط الجغرافي، والعصر، أو الزمان من ظروف سياسية وثقافية وفنية ودينية.

وفي تأمل تراث شوقي ضيف النظرى، والتطبيقي، ما يجعلنا في مواجهة صريحة مع هذه النظرية التي ظهرت في كتابات كل من: «سانت بييف، وتين، وبرونتير».

أما الجانب النظرى عند عالمنا الكبير فيتمثل في مناقشته هذه النظرية، وإشارته إلى تنبه العرب لهذه الثلاثية دون أن يعطوها حتمية أو جبرية، ولا يرى بأساً من استخدامها في تاريخ الأدب العربي، ودراسة أدبائه، دون خضوع للجبرية الحتمية، وبخاصة قانون الجنس لأنه لا يوجد جنس خالص.

ويناقش تطور الأنواع الأدبية عند «برونتير» موافقاً أساسها، لكنه يرى أن الأطوار الأدبية لا يقضى بعضها على بعض، لذا لا يرى في الأدب قديماً وجديداً، وسرى في الجانب التطبيقي مصداق ذلك عند عالمنا.

ومن جهود المنهجين ما يتجه للجانب الاجتماعي، في صلته الوثقى بالأدب، ومنهم من ينحو بالأدب منحى نفسياً يتصل بالإبداع، وتفسير الأعمال الأدبية تفسيراً نفسياً، يتصل بالرغبات

والدوافع والنماذج العليا، والعقد، واللاشعور الفردي، والجمعي.. الخ، ومن جهود المنهجيين ما يتجه للفلسفة الجمالية، وهكذا تعددت مناهج البحث الأدبي مفيدة من إنجازات العلوم الحديثة المعاصرة، مما عقد مجالاتها ونوعها كما هو معلوم.

أما شوقي ضيف فإنه يرضى المنهج التكاملي، كما تحدث في كتابه (البحث الأدبي) ص ١٣٩، فيفيد من العلوم الطبيعية في دراسة الأديب في أسرته وتربيته والمؤثرات الذاتية، وفي دراسة تطور الأدب من عصر إلى عصر، ومن المنهج الاجتماعي يقف على أثر المجتمع في الأديب وفي الأدب، ويبيّن طبقة الأديب، ويفيد من الدراسات النفسية على موطن الموروثات في الأدب، والعقد، كما يفيد من الدراسات الجمالية، ويخلص من ذلك كله إلى ضرورة الاستضاءة بكل هذه المناهج، وعدم الاقتصار على منهج واحد منها، ليتحول عقل الباحث إلى مرآة تعكس أضواء كل تلك المناهج فتعكس فكرة الأصالة والفرديّة والفصيلة الأدبية، والبيئة والعصر والظروف، والتطور التاريخي، والحاجات الاقتصادية للمجتمع، ورواسب اللاشعور الفردي والجمعي، وعناصر الجمال، فيما يشبه المنارات الضخمة تهدي سواء السبيل.

هذه هي خلاصة موجزة للآراء النظرية لشوقي ضيف، فيما عرضه في كتابه (البحث الأدبي)، وهي آراء تكشف عن منهج تكاملي، نجده فيما بين أيدينا من بحوثه المتعددة فيما نعتى ببيانه من بحوثه التطبيقية فيما يلي.

لقد قدمنا حديثاً عن نظريته في وحدة التراث في بحوث تطبيقية لديه أشرنا إلى بعضها، ونضيف إليها بحثه الفريد (الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور)^(١٣) الذي كتبه سنة ١٩٧٧، وبناء على نظريته القائلة بأن «الشعر يفصل من قلوب شعوبه وأفئدتها، ويصور حياتها وآمالها وآلامها» على مدى العصور.. لقد تتبع الظاهرة في العصر الجاهلي، ثم الإسلامي، ثم العباسي الأول، فالثاني، ثم عصر الدول والإمارات، ثم في العصر الحديث.

وحين ناقش - من قبل - آراء علماء الأدب في نظرية التطور عبر - بطريق غير مباشر - عن نظريته في (وحدة التراث)، قائلاً:

«الأطوار الأدبية لا يقضى بعضها على بعض، ولا يمحو بعضها بعضاً، وآية ذلك أننا نظرب للشعر الذي كتبه الجاهليون على الرغم من أنه يمثل طوراً مغرقاً في القدم، فالطور الجديد في الشعر لا يحكم على طور قديم بالفناء، وهو معنى ما يقال من خلود الأدب، وأنه لذلك لا يوجد قديم ولا جديد»^(١٤).

إن هذا الذي قاله سنة ١٩٧٢، هو بعينه ما ذهب إليه في بحثه المشار إليها من قبل: وحدة

(١٤) البحث الأدبي ٩٥.

(١٣) نرجع إلى الطبعة الأولى.

التراث سنة ١٩٨٠، والقديم الجديد في الشعر سنة ١٩٨١، إن نظريته التكاملية جعلته ينظر لسنة التطور في الفنون الأدبية نظرة لا تنفصل عن الجمال الفني، نظرة تحقق نوعاً من التوازن بين المناهج الفنية، وقد أسلمته نظريته عن (وحدة التراث) إلى نظرية أخرى، هي ما يمكن أن نسميه نظرية (وحدة الظواهر الأدبية).

فكما وقف عند ظاهرة البارودي رائد حركة البعث في الشعر العربي المعاصر وأفرد له كتاباً، ورأى امتداد الظاهرة وتطورها في خطوات تجديدية عند أحمد شوقي، فأفرد له كتاباً أيضاً كما قدمنا، وإلى جانب الكتابين لم نعدم إشارات وإضافات له عن الشاعرين في كتبه الأخرى مثل: الأدب العربي المعاصر في مصر، وفصول في الشعر ونقده كما قدمنا، ودراسات في الشعر العربي المعاصر.. الخ.

نقول إنه كما صنع ذلك مع القمم الرائدة فيما سبق، يمضى فيكتب عن صلاح عبدالصبور ملقباً إياه: رائد الشعر الحر الجديد، كما لُقّب البارودي برائد الشعر الحديث، وكما لُقّب شوقي بشاعر العصر الحديث، هكذا تطرد الظواهر الأدبية أمام ناظره في إطار منهجه التكامل، الذي لا ينظر للتطور نظريته إلى عملية «إحلال» أو «فناء». بل ينظر للظواهر الأدبية على أساس امتدادها الطولي، فينظر إلى فن الغناء في مكان ما وعصر ما، ويقدم لنا كتابه (الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية)، ويعمد إلى الفنون الأدبية العربية، فيرصد امتدادها ووحدة ظواهرها، ويفرد لكل منها دراسة خاصة، فنرى دراساته حول فن الرثاء، وفن المقامة، وفن النقد، وفن الترجمة الشخصية، وفن الرحلات.

إن هذه النظرة التكاملية شديدة الاتصال بتكاملية منهج شوقي ضيف - كما سنرى - وأتصد بذلك نظريته إلى العلوم الأخرى المتصلة بالأدب، لقد بينا في مطلع حديثنا موقف باحثنا من نظروا للأدب بمعناه العام، وكيف ارتأى أن ينظر إليه من خلال مفهومه الخاص، ونضيف هنا أنه - وقد نوع من خصوبة عطائه كما هو معروف - ينظر للبلاغة حين يقدم كتابه (البلاغة تطور وتاريخ) في فبراير ١٩٦٥ من خلال الترابط الوثيق بينها وبين الأدب، وهو ربط يتجاوز مجرد النظرة السببالية كانت تحكم نظرة أحمد ضيف من قبل - كما قدمنا -، وترك لشوقي ضيف تقديم وجهة نظره، فهو أقدر على بسطها على كل حال، يقول:

«ولم تكن غايته أن أصور هذا التاريخ لبلاغتنا فحسب، بل أيضاً أن أصور التفرغظ الوثيق بينها وبين أدبنا في تطورهما، حتى انتهيا إلى الجمود والتعقيد والجفاف والتكرار الممل، وأن رسم في تضاعيف هذا التطور الوشائج الواصلة بين كل بلاغي...، ثم يذهب إلى أنه «ينبغي في تشكيل بلاغتنا الحديثة أن نعنى ببيان الأساليب الأدبية المتفاوتة وفنون الأدب المختلفة حتى تلائم بين بلاغتنا وأدبنا الحديث وأساليبه وفنونه».

وهكذا نقف عند عالمنا على جانب من نظرتة التكاملية التي فتحت الباب، أمام دراسات بلاغية عربية حديثة، اهتمت بصلة البلاغة بالأسلوبية، وقد وجدنا نماذج لذلك لدى جيل من الباحثين المعنيين بهذا الأمر الآن ممن تأثروا بمنهج عالمنا الكبير.

ويتصل بهذا الجانب التكاملي - أيضًا - أنه حين حقق كتاب (الرد على النحاة) لابن مضاء القرطبي الذي صدر عن لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م وجد في ذلك باعثاً على التفكير في تجديد النحو، وما زال يواصل جهوده حتى أظهرها في كتابه (تجديد النحو) سنة ١٩٨٢ في شكل جديد أعتذر عن عدم الاستطراد في الحديث عنه، وإن كان لا يفوتني التنويه بالتفاته الأدبية التي تؤكد تكامل العلوم لديه - كما قدمنا - فقد ذكر من بين أنواع الجمل جملة أسماها (الجملة الحوارية)، تلك التي يجاب بها في حوار القصص ص ٢٥٧، وهي إشارة أحسبها فريدة لم تتكرر لدى غيره، بل لم يسبقه إليها أحد.

وينقلنا ذلك إلى ظاهرة أخرى هي أدق وجوه منهجه التكاملي، وهي عماد بحوثه كلها فيما نرى، هذه الظاهرة هي جمعه بين الرؤية الداخلية والرؤية الخارجية:

إن المتتبع للبناء الفنى لدراسات شوقي ضيف يجدها نابعة من هذا المنطلق إيمانه التكاملي بضرورة قيام الدراسة على جناحين: أحدهما خارجي يستلهم المجتمع، والنفس، والطبقات، والعقائد، والعادات، وعوامل الاقتصاد، والسياسة. والآخر داخلي يستكنه النص ويستشرف آفاقه ويمتص رحيقه ويستوعب شذاه، ولكي نوضح ما تقصد بهذه الظاهرة نستعرض البناء الفنى لسلسلة دراساته في (تاريخ الأدب العربى)، ودراسيته عن شاعرى العربية الحديثة: البارودى، وأحمد شوقى لنرى وجهى الرؤية المنهجية عنده من الخارج ومن الداخل.

إنك واجد كل كتبه بلا استثناء يقوم على الأساس التالى:

الفصول الأولى من الكتاب - قد تكون ثلاثة وقد تكون أربعة - ذات رؤية خارجية تستقرىء التاريخ، وتتعرف على المجتمع والبيئة، والحياة السياسية والدينية والاقتصادية، وكل العوامل الخارجية، وما أسماه التاريخ الطبيعى للأدب، في فصول يختار لها هذه العنوانات^(١٥): الجزيرة العربية وتاريخها القديم. العصر الجاهلى - الحياة الجاهلية - الإسلام - الشعراء المخضرمون ومدى تأثرهم بالإسلام - مؤثرات عامة فى الشعر والشعراء - بيئات الشعر الأموى - تطوره مع الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية - الحياة السياسية - الحياة الاجتماعية - الحياة العقلية. (هذه الثلاثة التزامها فى العصر العباسى الأول

(١٥) نرجع فى ذلك إلى كتبه: العصر الجاهلى - العصر الإسلامى - التطور والتجديد فى الشعر الأموى - العصر العباسى الأول، فالتانى.

والثاني)، وفي حديثه عن البارودي أو شوقي يهتم بالحديث عن (الحياة) في فصل خاص. إن التزام شوقي ضيف بهذا الجانب من الرؤية الذي نسميه رؤية خارجية، يقوم على أساس من منهجه التكامل، ولا يقتصر على أهمية التاريخ كما يذكرها ابن الأثير^(١٦) فحسب؛ في قوله: «ولقد رأيت جماعة ممن يدعى المعرفة والدراسة، ويظن بنفسه التبحر في العلم والرواية، يحتقر التواريخ ويزدرها، ويعرض عنها ويلغوها، ظنا منه أن غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار، ونهاية معرفتها الأحاديث والأسمار، وهذه حال من اقتصر على القشر دون اللب نظره، أصبح مخشلاً^(١٧) جوهره، ومن رزقه الله طبعاً سليماً، وهواه صراطاً مستقيماً، علم أن فوائدها كثيرة، ومنافعها الدنيوية والأخرية همه غزيرة.

إن اختيار شوقي ضيف لهذا التكامل بين الرؤية الخارجية والرؤية الداخلية يلتقي مع ما يقرره مؤلف كتاب، (كيف نفهم التاريخ - مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخي)^(١٨) وهو الأمريكي لويس جوتشالك Louis Gottschalk إزاء حديثه عن المؤرخ واتجاه أهدافه إلى أن يكون حارساً على التراث الثقافي أولاً، ثم رؤية للتطور البشري ثانياً، وهكذا نرى أخذ شوقي ضيف بالمنهج غير الجمالية طريقتاً يصل به إلى قلب التراث وإطارة العام، ويمكنه من رواية تطوره وتعاقب أجياله، حتى يمكن القول إن تراثه الأدبي يروي تاريخ آدابنا العربية ويقدمها للأجيال ذخيرة باقية خالدة، وهنا تكمن قيمة الرؤية الخارجية كما نقف عليها في دراساته.

وإلى جانب السمات السابقة لمنهج شوقي ضيف في الدراسات الأدبية مما يندرج في إطار الرؤية الخارجية، نجد سمة أخرى هي الرؤية الداخلية، وهي أساس من أسس دراساته وبحوثه، فإذا ما رجعنا إليها بنفس المنهج السابق وجدناه بعد الرؤية الخارجية في الكتب السالف ذكرها يعمد إلى طائفة من الشعراء في كل كتاب ليدرسها دراسة جمالية فنية واعية متأنية كما رأينا في دراسة: امرئ القيس، والناطقة، وزهير، والأعشى، وابن أبي ربيعة، والكميت، والوليد، ورؤبة، وطوائف من الشعراء والكتاب. أو يعمد إلى أغراض شعرية فيوفيهما حقها من الحديث الفني، كما رأينا في شعراء المديح والهجاء - وشعراء السياسة - والنقائض.. الخ.

وقل مثل ذلك في النثر.

أما دراسة الشاعر (البارودي أو شوقي) فنجد بعد الرؤية الخارجية يتحدث عن مكونات الصناعة، والمؤثرات الفنية، وشعر الشاعر وتجديده.

(١٦) الكامل في التاريخ لابن الأثير - مج ١ دار صادر، ودار بيروت - بيروت ١٩٦٥، ص ٦

(١٧) إلمخسلب: خرز يتخذ منه حل وحادثه مخشلبة، المخصص لابن سيده.

(١٨) دار الكاتب العربي بيروت ١٩٦٦ ص ١٠٥ (ترجمة الدكتورة عايدة سليمان عارف).

أما الكتب ذات الموضوعات المتعددة فتمتزج النظرات الداخلية والخارجية فيها في الموضوع الواحد، وتغلب الرؤية الداخلية في معظمها كما نرى في كتابه (دراسات في الشعر العربي المعاصر) حيث: اللذة الصاخبة عند أبي شبكة، وضجيج الألفاظ الخلابة عند علي محمود طه، وفي هذا الموضوع تبدو ومضات أسلوبيية في منهجه الفني تنحو منحى الأسلوبيين، والمادة التصويرية في شعر أبي ريشة. ونرى مثل ذلك في كتابه (فصول في الشعر ونقده) حيث نرى دراسته لنواقص الإيقاع في الشعر الحر.

وفي هذه الموضوعات نرى غلبة الرؤية الداخلية، وازدياد ميله الجمالي لدراسة النص.

وهو في ذلك كله خاضع لطبيعة الموضوع وما يستلزمه من منهج، وما يقتضيه من نظرة فنية تتلاءم مع طبيعته، وأبعاده مما يجعله جامعاً بين الرؤية الداخلية والخارجية في منهجه التكاملي، وإن كان ذلك لا يمنع من ظهور أحد الجانبين ظهوراً يطفئ على الجانب الآخر، تبعاً لاختلاف طبيعة الدراسة مما بين أيدينا من تراث أضيف على الدراسة الأدبية طابعاً منهجياً علمياً رزيناً تخلص مما عانت منه الدراسات السابقة من مأخذ.

وإذا كنا قد انتهينا إلى أن منهج عالمنا الكبير منهج تكاملي، فإن علينا أن نضيف أن هذه التكاملية تتسم بسمتين، السمة الأولى أنها تكاملية عربية، والسمة الثانية قيامها على الوضوح. ونقصد بكونها عربية أن منهج التكامل فيها لم يرقم على التوفيق، أو التلقيق بين نظريات منقولة كما انتهى إليه أصحاب كل منهج، وأن منهج التكامل فيها لم يرقم على إغراق في تفصيلات أنصار هذا المنهج، أو ذاك من اهتمام بالتاريخ الطبيعي، أو علم الاجتماع الأدبي، أو التحليل النفسي للأدب ودراسة الإبداع إلى آخر ما هنالك من اتجاهات، أي أنه لم يعمد إلى نظريات جاهزة بل عنى بوضع يده على طبيعة العلاقة بين القوانين الداخلية، والأخرى الخارجية للأدب العربي في عصوره المختلفة، مفيداً من كل ما يخدم هذا الهدف من نظريات دون خضوع لواحدة منها، ودون خضوع لها مجتمعه.

ونصل بذلك إلى السمة الثانية، وهي الوضوح، وفي ذلك ارتباط بالمعنى الأول لكلمة المنهج قبل أن تصير مصطلحاً علمياً متعدد مجالاته وتتنوع، فالطريق النهج هو البين الواضح وأنهج الطريق استبان وصار نهجاً بيناً، والمنهاج الطريق الواضح، واستنهج الطريق صار نهجاً، وفلان يستنهج سبيل فلان أي يسلك مسلكه، والنهج: الطريق المستقيم، وهكذا كان الوضوح في هذا المنهج التكاملي لأستاذنا شوقي ضيف.

د. يوسف حسن نوفل

أستاذ الأدب الحديث

كلية البنات - جامعة عين شمس